

مقدمة الطبعة الثانية

لم تستذل - فى هذا العصر - شعوب كما استذلت شعوب الشرق ، ولم يستغل شىء - فى هضم حقوقها - كما استغل الدين !! ؟

لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت ، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالى ؛ كما يصرخ الحارس اليقظ إذا رأى جرة المصوص الوقحين !! . وبذلك أصبحت الأمة مضيعة بين استذلال عنيد واستغلال منافق ، وأصبح الدين مسخرأ فى ميادين شتى لتسويغ الحيف ، والتقليل من خطره فكان حقاً علينا - كؤمنين - أن ننصف الدين من الأوضاع التى شانت حقيقته وكان لزاما علينا كمواطنين أن ننصف الوطن من الأنظمة التى ظلمت أهله ، وأكلت ثروته ، وكان من أجدر الحقائق بالإفصاح والإيضاح أن يعلم الناس علم اليقين أن الدين فى خدمة الشعوب لا فى خدمة فرد أو أفراد !!!

ومن ثم فلا بد من منهج يقوم على عمل مزدوج يتمشى فيه جنباً إلى جنب حماية حقيقة الدين ، وصيانة حقوق الناس .. إننا نقدر حق الإنسان فى أن يعيش حر العقل والضمير . . . ونقدس آمال الطبقات المختلفة فى أن تعيش متكافئة الدماء ، متآخية على السراء والضراء ، متساوية فيما تحمل من واجبات وأعباء ، ونقدس حق المجتمع فى أن يسير إلى الأمام قدماً وأن يتخلص من الطوائف التى عاقت تقدمه وعاشت فيه فلم يستفد منها شيئاً قط ؛ واستفادت هى منه كل شىء !!!

ونريد أن نصفى المنابع التى تستقى الأمة منها هذه الأفكار .

والناس لم يألفوا أن يعرض الدين عليهم بهذا الأسلوب الحر ! بل ألفوا أن يأخذوا أنصبتهم من الحياة الصحيحة بعد تجارب طويلة من أحوال الدنيا . وبعد كفاح مرير مع الطغاة والجبارين .

وقلنا استهدى الناس - فى أزماتهم الأخيرة - بأشعة السماء فى تلمس

الطريق إلى الخلاص مما يعانون ، بيد أن هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، فإن هداية السماء للأرض لم تفقد بريقها ولا رونقها أما العوائق التي حالت دون نفع الناس منها ، فقد آلينا على أنفسنا أن نسقطها إسقاطاً لا قيام لها بعده . . . كانت آيات الدين تكتب في ألواح مذهبة ثم تعلق على جدران القصور ، أو كانت تصاغ في ألحان عذبة ثم ترسلها الأصوات الحنون ، وكان رجال الدين الصف الأول في مواكب العطاء الفخمة ، وكانت الأديان مكلفة أن تبارك الموائد الحافلة وتنحني لأصحابها ، وأن تواسي الجماهير الجائعة وتصبرهم على لأواء الحياة وبأسائها . . . حتى ظهر الإسلام فسكفر بهذه الأباطيل كلها . إنها تزوير على الله وكذب على دينه إن الدين أنزل من عند الله لخدمة الشعوب وحدها ، وليست آياته زينة تعلق على جدران القصور الظالمة بل هي زلازل تدك بنيانها وتغل طغيانها وما كان الوحي يوماً ما غناء مطربين ولا تراتيل دجالين وإنما هو نذير العدل يصرخ في آفاق الحياة باستنكار البغى والعدوان . « وما الله يريد ظلاماً للعالمين » .

وليست وظيفة رجال الدين أن يمشوا في ركاب العطاء ! فهل هذه إلا وظيفة المتملقين من رجال الدنيا ؟ ! إن رؤساء الأديان المبعوثين من لدن الله كانوا ينشدون المساواة الحققة بين البشر فإذا لم يستطيعوا أن يهبطوا بمنازل السادة فلن يعجزوا عن الارتفاع بمستوى العبيد « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض » .

وليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به فهذه جريمة . بل يقول الإسلام للرجل المغصوب في ماله أو المنكوب في عرضه « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » . . . لا تستسلم أبداً . . . إن الدين في خدمتك يضع السلاح في يمينك ، ويضع

الآمل في قلبك ، ويضع الأصرار في إرادتك ، ويكلفك أن تستमित دون حقل . إن الله لم يبعث أنبياءه ليستريح باسمهم نفر قلائل من حثالة الناس أو من قادتهم العظام إنما بعثوا ليستريح البشر كافة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

وهكذا سبقت مشيئة الله أن يكون الدين لخدمة الشعوب لا لسلب الشعوب واستغلال بنيتها واستغلال أحرارها .

لشد ما غلبت أمم على أمرها وذات ضراوة الوحوش من مستعمرها أو . . . من حكامها ، وطالما تلفتت إلى الأرض وإلى السماء تلتمس النجدة !!!

لقد كفرت بالدنيا لما ظلمت فيها ثم كفرت بالدين لما ترقبت معونته فلم يسعفها بها . أما هنا في الشرق فلن تتكرر المأساة الدامية ! لن ندع الناس يكفرون لا بالدين ولا بالدنيا ، سنقدم لهم التأمين الاجتماعي مشرباً بروح الإيمان الحر . . . أو الإيمان بالله مفرغاً في نظام من الحرية والأخاء والمساواة ذلك هو الدين كما أنزل من عند الله « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وما كان الدين مخدراً للشعوب كما يقول فيه السائحون . ولا كان مخدراً للشعوب كما يصنع منه المستخرون . ولا مكان معه لشيوعية ولا رأسمالية . . . خطتنا الفذة أبداً هي . . . مع المظلوم حتى ينتصر وعلى الظالم حتى ينكسر ، وإلى جانب الشعوب حتى تتخلص من أسريها وتشار لنفسها من قاهريها . . . !

يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان . لقد نزل الدين إلى الميدان بجانبكم فضعوا أيديكم في يده . إن الشفاه التي تأمر يا ذلالكم يجب أن تقص والأوضاع التي تغتال حقوقكم يجب أن تقصى ! . والفراغ الذي خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد يجب أن تنزاح غمته إلى الأبد .

ونحن نعلم أن موجات التاريخ الجارفة وثورات الحياة العارمة لم تحدث عقيب وقوع المظالم المخرجة ، بل بعد الشعور بضررها والاكتواء بحر ها والغضاضة من بقائها . . .

لذلك سنوقظ المشاعر المخدرة حتى يعاودها الإحساس ، ونلهب الأجيال المستقبلية حتى تسير مع مواكب الناس ، ونصرخ في آذان الساهمين الغافلين ، « ألا أيها النوام ويحكم هبوا » فقد طال المنام وخذوا أنصبتكم من الحياة الكريمة فقدولى عهد الظلام . إن الدين والدنيا للعاملين لا للقاعدين . ولن نسمح بعد اليوم أن يبتاع بالدين في سوق الشهوات ، ولا أن يتخذ ذريعة لاسترقاق الأحرار وقهر الشعوب .
فإلى الإسلام الصحيح حتى نزيح ونستريح .

محمد الغزالي

١٣٦٩ — ١٩٥٠

مقدمة الطبعة الأولى

هذا بحث مجمل في موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، اعتمدت في موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين والفهم المستقل لآثاره الثابتة . ولم أجنح في هذه الدراسة إلى المقارنة بين نظام ونظام أو المفاضلة بين مذهب ومذهب من هذه الأنظمة والمذاهب التي تمخض عنها تطور الفكر الإنساني في العصر الأخير فليس هذا ما يعنيني ولست أملك العدة اللازمة لاستقصاء البحث فيه ! وإنما ألفت هذه الرسالة ورتبت فصولها المحدودة لغاية واحدة . هي إعطاء القارئ صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين والروح العامة لمبادئه والموقف الذي قد يقف به بإزاء الأفكار الاقتصادية المختلفة وللقارئ بعدئذ أن يقارن ويفاضل ويستخلص من النتائج ما يشاء .

وحاشى بهذا الكلام أن أقحم الدين فيما ليس له أو أن أحمله من الآراء ما لا شأن له به فما إلى هذا قد قصدت . كل ما أبغيه أن أنصف الدين من سوء الفهم وسوء الاستغلال . فقد أنكرت الشيوعية الدين لأنها حسبته مخدراً للشعوب ومسكناً لآلام الطبقات المظلومة وصارفا لهمم أبنائها عن المطالبة بحقوقهم المضیعة . واحتقرت الرأسمالية الدين إذ توصلت به إلى إشباع المطامع الجشعة وإقرار الفوارق الجائرة وتعويق النهضات الحرة ، والدين مظلوم بين من كفروه ومن جحدوه ! بين الشيوعية المتطرفة والرأسمالية المتعجرفة ! ولا بد من أن نكشف عن حقائقه ، وأن نبين عن معالمه لند عنه سوء الفهم وسوء الاستغلال جميعا . والسبيل العادلة إلى ذلك هي تحديد موقفه من نصوصه نفسها وقلما تنصرف النفوس عن الدين لو عرض عليها عرضاً صحيحاً نقياً

فإن أسباب الكفر مفتعلة عند أغلب المتبرمين بالتدين وأكثر هؤلاء كافر بما لا معنى للإيمان به مرتاب فيما تجب الريبة فيه ، ولو أتيحت لهم الفرصة وكشف عن أعينهم الغطاء ودرسوا الدين كما أنزل من عند الله لا كما أخذ من أيدي الناس لعادوا من أرسخ الناس ديناً وأعمقهم يقيناً ! ذلك أن الدين للأسف الشديد مصاب منذ القدم بإضافات زائدة وأفكار فاسدة شابت جوهره ، وعكرت حقيقته ، ولبست تراث النبيين الهداة بأضاليل الشياطين الغواة ، وعلينا أن نفصل الحق من الباطل ، وأن نميز الخبيث من الطيب حتى لا تختلط أمام النظرات السطحية أسباب الهدى وأسباب الضلال فإذا تميز الخير عن الشر ، وانفصل كذب الأرض عن وحى السماء لم يبق ثمة موضع لسوء الفهم وسوء الاستغلال ! ولم يبق على التنسك للدين إلا أقوام من المتنطعين والمتعنتين ، وإلى هؤلاء لا يساق حديث ولا ينتظر إقناع . وقد قرر القرآن هذه الحقيقة — بشأن الدين وما يطرأ عليه من أوهام وما يضاف إلى حقيقته من بدع وخرافات — فقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » . . . أجل فإن حقائق الدين من منابعه الفريدة الأولى لم تسكد تسرى في مجراها من هذه الحياة حتى علقت بها من رواسب البيئات ومخلفات القرون وجهالات العامة وشهوات الخاصة ونزوات الحكام ما ذهب بالكثير من صفائها ونقاؤها حتى لتشبه ماء « النيل » في مجراه الأدنى لا يصلح للشراب إلا بعد مجهودات متعاقبة من الترشيح والتقية ترده « سماوياً » كما كان .

وموقف الدين من الأوضاع الاقتصادية خضع لهذه الصبغة العامة
والسنة المطردة فظن الناس فيه الظنون وتولدت من ذلك رأسمالية جائرة
وشيوعية كافرة . . .

ومن حسن الحظ أن الاضطراب الذي أصاب الناس في أعمالهم
وأحكامهم لم يؤثر تأثيراً خطراً على المقياس الذي نتناول به هذه الأعمال
والأحكام بالنقد والتخطيط والتصويب فمعرفة الحقيقة لا تزال في مقدورنا
ورسم حدود الدين تنفي ما وراهها عن حظيرته المقدسة أمر سهل . وقد
كافح كثير من أئمة الفقه والتشريع والإصلاح على مر القرون لنيل هذه
الغاية فنالوها . على أن الإنسانية لم تزل بحاجة إلى من يوضح هذه الخطوط
إذا درست بفعل العوامل المختلفة . وتعهد ذلك ضرورة لا بد منها لمصلحة
الدين أو لمصلحة الناس أجمعين .

وأقصد بالدين الخلاصة التي اشتركت كافة الديانات في تقريرها وعملت
الرسالات المتعاقبة على إبلاغها . ثم جاء القرآن الكريم فأفرغها في
صبيغتها الأخيرة وأعطائها صبغتها النهائية وربطها بفطرة النفس السليمة
والعقل الرشيد ووجه قلب الإنسان ولبه إليها عندما قال « فأقم وجهك
لدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين
القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . . وعلى نصوص هذا القرآن
أعتمد في الاستدلال والاستنتاج مسترشداً بما قد يرد في السنة من شرح
وتفصيل . فإني أكرر مرة أخرى أن البحث في هذه الرسالة ديني محض
أضعه تحت أنظار معتنقي المذاهب الاقتصادية ليحكموا بعينه للدين
و على الدين . . .

وطريقتنا تقوم على احترام ظواهر النصوص والتمشي مع قواعد
الدين العامة فإن ضروب التأويل التي تعلق بها الكثيرون ليست إلا لونا
من تحريف الكلام عن مواضعه خدمة لبعض الأغراض الصغيرة

أو تحاشياً للاصطدام مع بعض السلطات القائمة أو تحكيميا للعرف السائد والتقاليد المتوارثة في الدين نفسه ليلين معها وينجرف في تيارها . . .
لقد ورد في الحديث مثلاً : « من جدد عبداً جددناه ومن خصى عبداً خصيناه » . فجاء قوم وقالوا : إنما قصد الشارع عبداً تحرراً !! والغرض من هذا التأويل أن يجر الدين إلى جواز خصى العبيد !! وقد التصقت هذه السسبة بالدين حتى جاءت الحضارة الحديثة فحرمت النخاسة^(١) وما يتبعها من خصى ونحوه . وهى وما تتبعها لم تحل في دين من الأديان . بل قد وردت نصوص تحرم اختطاف الأحرار وتحرم إيذاء الرقيق بالكلمة النابية بله قتل الرجولة فيهم . ولكن سوء الفهم هنا فرض على الدين فرضاً فتجنى الناس على الدين . وجاء الدين مثلاً يقرر الشورى في الحكم فجاء بعض المفسرين يقول : إن الحاكم يستشير ثم يمضى على رأيه لا على الشورى وبذلك أصبح معنى النص يتحمل الشيء وضده فإذا قال القرآن : « شاورهم في الأمر » كان معنى الآية يبيح للحاكم أن يكون ديمقراطياً وأن يكون مستبداً !! ما دام له حق القبول وحق الرفض . ومثل هذه التأويلات ترحب بها الحكومات المستبدة في الشرق الإسلامى ولعلها نبتت في ظلها وبإيعاز منها . ومن ثم قال الشيخ محمد عبده في هذه التحولات البعيدة : « إنها نزغات شياطين وشهوات سلاطين » وقد هونت هذه التأويلات من قداسة الدين وغضت من كرامته ، ولذلك نريد أن نجليها عنه « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » . ثم يجب أن نعرف أن هناك أهدافاً كبرى للدين يعمل للوصول إليها ولا يتخلى قط عن المطالبة بها وله مطالب أخرى ثانوية تدور مع الأهداف الكبرى ، كما يدور عقرب الثواني في الساعة يتجه كل ناحية ،

(١) خطف الأحرار على نحو ما كان يحدث في القرون السابقة .

ولسكنه في حساب الزمن خاضع للعقريين الكبيرين لا يضطرب قط
معهما . وكثير من المتدينين وقفوا عند هذه المطالب الصغرى فلم يفقهوا
من الدين إلا قشوراً لا تغنى عن اللباب وقيوداً تنبوعها روح الكتاب .
وموقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، يتطلب منا أن نحترم
النصوص الجزئية ، وأن نحترم كذلك الدلائل العامة ، فنحن نريد أن
ننصف الدين . . نريد أن نداوى بالإيمان ما يراد له أن يداوى بالكفر
والعصيان !! وسيجد القارىء في هذه الرسالة طائفة من الأفكار الدينية
المستقلة أرجو أن تكون بداية موفقة للكلام في هذا الموضوع الخطير .